# النوافذ المغلقة وعيون الاحباب

قصة بقلم احمد سويد

للمرة الثالثة كشها بلا مبالاة ، ولكن الذبابة اللعينة كانت على ما يبدو من فصيلة شديدة العناد ، لذلك عادت فكرت عليه من جديد ، وحطت على رأس أنفه الطويل البارد ، وراحت تركله بقوائمها الدقيقة العابثة ، وتلسعه بطنينها المزعج كأنها انما تتعمد مضايقته واخراجه من جو حلمه الكبير الذي يغرق فيه .

وطردها « صابر » هذه المرة بعنف ، وتتبعها ببصره الحانق وهي تناى عنه ، ثم ارتد بصره ليستقر من جديد ، على صلعة المعلم سعيد .

... كانت صلعة المعلم ما زالت تلمع امامه تحت المصباح الكهربائي، وكان المعلم ما زال يؤدي كعادته ، كلما شح زبائن المقهى ، وصلة طويلة من شخيره الرتيب ، يعبر بها عن استيائه الشديد لشحة الرزق .

« ما ضر يا معلمي لو اعفيتني من الخدمة هذه الليلة ؟ فنحن سوف ننطلق عندما تعلن الساعة منتصف الليل ، سننطلق يواكبنا الظلام، وتمنيات المنظمة بالنجاح في المهمة » .

ها انذا في المقدمة ، رفيقاي يسيران ورائي بصمت ويتحرقان مثلي الى شمة من عبير الارض الغالية ، ارضنا التي سوف نعانقها ذات يوم في وضح النهار ـ نسير بلا كلل في طرقات مهجورة ، بعيدة ، تتناثر فوق حصاها الشاكسة آصداء نباح متقطع ترسله من بعيد كلاب ضجرة تحاول أن تطرد به وحشتها وهواجس الليل .

ها نحن بعد ساعات أمام الحدود ، امام الشريط الذي أقامه الانذال حدا بيننا وبين وطننا ، آذن ، لقد اجتزنا المنطقة الحرام . انتبه يا رفعت . وأنت يا ماجد خفف قليلا من لهاثك .

انبطاح . هل سمعتما شيئا ؟ يخيل الي أن شيئا ما ينزلق فوق مياه البحيرة . هي ذي نجمة مذنبة تمرق كالسهم في فضاء السماء الكئيبة . لقد كاد ذيلها الملتهب يلامس رأسي قبل ان تغرق في البحيرة الصامتة .

هل سمعتما شيئا ؟ هدير زورق بخاري على ما أظن ، حذار من الحركة . سوف يرسلون بعد لحظة انوارهم الكشافة لتمشط وجه الارض بأضوائها الوقحة . ان الجبناء يرهبون ارضنا . يرهبونها وهي تحت ارجلهم ، يخشون أن يثور ، في أية لحظة ، من تحت كل حصاة فيها ، فدائي او متفجرة .

وجهي ما زال الى الارض . وأضواؤهم الكشافة أحسها فوق ظهري ، ثقيلة كالعار ، محرقة كالنار ، نفاذة كالذل ، ورطانتهم تتناهى الي كاللعنة ، كالبصقة ترطب شعري وتسيح على جبيني ، فينمو الحقد في داخلي ويتململ ، ويزحف عبر زندي عاتيا ، ليضع سبابته المتشنجة، على زناد رشاشي ، ولكن أوامر القيادة تتدخل في اللحظة الحاسمة ، فتلجم حقدي :

« اياكم ان تبادئوا باطلاق النار ، وتذكروا ان لكم مهمة يجب ان تحققوها » .

المعذرة اذن يا رفيق عمري ودربي . المعذرة يا حقدي الكبير المزمن، وصبرا ، ففي طبريا قد يتاح لرشاشي أن يفجرك ، في وجوه السفاكين، واللصوص وزمر الكلاب .

***

... وصفق أحد الزبائن القلائل الذين ما زالوا في المقهى ، يطلب فنجانا من القهوة ، فهب المعلم سعيد كالملهوف ، ليصدر أوامره الصارمة بتلبية الطلب على وجه السرعة ، وهرع صابر الى صينيته فحمل الى الزبون بغيته ، وفيما كان يعود الى زاويته ، رنا ببصره الى الساعة الكبيرة العتيقة المصلوبة في صدر المقهى :

ـ آف ما ابطأ هذه الساعة ! انها كحيوان قطبي متجمد الاطراف لا يكاد يتحرك .. لقد استنفد المعلم سعيد كل ما في صدره من شخير ، وهي ما زالت تحبو نحو التاسعة .. ترى ... كم سيستغرق زحف عقاربها من وقت حتى تبلغ الثانية عشرة ؟

... وابتسم صابر .. فقد خيب المعلم سعيد ظنونه وعاد على الفور يفتتح وصلة جديدة من الشخير المنغم ، في حين كانت الذبابة اللعينة اياها تتزلج فوق صلعته بكل اطمئنان ، وتقوم بكل براعة ، بعرضها البهلواني الطريف .

... وانكفأت الدورية وهي تعتقد ان كل شيء على ما يرام ، لا . يا جرذان الليل . بعد قليل لن يكون كل شيء على ما يرام كما تتوهمون. بعد قليل سنفاجئكم في اوكاركم بطبريا نفسها . بطبريا . ولكن لماذا اختارت القيادة لنا طبريا بالذات ؟ لماذا لم تختر لنا يافا ؟

لقد اشتقت والله الى يافا . الى بياراتها . اشتقت الى بيتنا المتواضع الذي كان يلطي بايمان وورع في ظل المئذنة العالية .

ترى هل أبقوا عليه وعلى جارته المتسامقة ؟ أم ان صموده وكبرياءها قد استفزا لؤمهم فدمر لؤمهم بيتنا وجارته الشامخة .

... والحاج درويش هل تراه ما زال يجلس جلسته المعتادة على مدخل الجامع يرتل القرآن ساعات ، ثم يقرأ الفاتحة ويهدي آيات الله البينات متطوعا الى امواته واموات المسلمين كافة ، وأرواح الشهداء والمجاهدين في سبيل الله والغزاة في بره وبحره ؟

رفعت . ماجد . هيا بنا ! ها هي طبريا تلوح لنا من بعيد بقناديلها . تلوح للاحباب الذين غابوا وما زالت تنظرهم . ولكن طريقنا اليها ما زالت طويلة . وبيننا وبينها ثلاث مستعمرات .

ما بالك يا رفعت ؟ سقطت في المستنقع ؟ هات يدك سريعا ، لقد روعت ضفادعهم فهبت تهاجمنا بزخة كثيفة من نفطها المزعج . حتى نقيق ضفادعهم يختلف عن نقيق ضفادعنا ، ضفادعنا تمجد الله وروعة الليل والمناجاة ، أما ضفادعهم ...

الصمت . نحن على ابواب مستعمرة من مستعمراتهم . هذا حمار يهودي ينهق . هذه أضواء منازلهم تبحلق فيما حولها بعهر ، حذار ، قد يكون للمستعمرة حرس ليلي ، فلنسر زحفا ، ولنبتعد حتى عن المنازل الخلوية .

***

ـ جمرة يا ولد .

... وهب صابر :

هؤلاء الزبائن مزعجون . يريد جمرة لنارجيلته . تكرم يا افندي . سأحضرها لك حالا . وجاره يطلب كأسا من الماء المثلج . حاضر يا سيدي . والمعلم سعيد يستفيق ليزعق وهو يمسح صلعته بحنو :

ـ اين انت يا صابر ؟ أما تسمع طلبات الزبائن ؟

ـ حاضر يا معلمي . لقد لبيت طلباتهم جميعا .

وعقرب الساعة في الحائط ينبطح فوق العاشرة وكله اعياء وسأم، أف لهذه السلحفاة المعلقة ! يبدو انهم لن يدعوننا نصل الى طبريا .

ماجد ... اين انت يا ماجد ؟ ما بالك تخلفت ؟ عليقة تشبثت بأذيالك ؟ تخلص منها . لعنة الله عليهم وعلى عليقهم ...

ويتخلص ماجد من العليقة ، ونتابع السير . المستعمرة الثانية تواجهنا باعتداد وكبر . يا لحمقهم ! يحسبون ان تحصيناتهم التي اقاموها حولهم توفر لهم الطمأنينة والامان ، ويمكن ان تصدنا . ولا يعلمون اننا لولا أوامر القيادة لسمحنا لرشاشاتنا ان تزغرد الان في ساحاتهم ، وتنشر بينهم الهلع والذعر .

... وتمر دورية مصفحة من دورياتهم وهي تجرجر جبنها وعهرها على الاسفلت وليس بيننا وبينها سوى حافة الطريق . لا يا روبين ، لقد قضمت شفتي ! دع شيئا منهما للرفاق ! ولكن روبين على ما يبدو،

كان يود ان يستأثر وحده بالفنم المباح ، لذلك كان لا يعبأ باحتجاجات رفاق السلاح وبغام رغباتهم الجامحة .

... ويتململ رفعت :

ـ سأحصدكم كلكم يا ابناء القحبة !

ولكن يدي تشد ذراعه :

ـ تعقل يا رفعت . وتذكر اوامر القيادة .

دائما أوامر القيادة . دائما أوامر القيادة .

... ونوغل من جديد في قلب الليل والترقب والمغامرة .

ويزعق بي المعلم سعيد وهو يهزني :

ـ يا قليل الحياء ... تنام وليس في المقهى من يلبي طلبات الزبائن ؟

وأثب عن الكرسي مذعورا :

ـ بالشرف يا معلمي لست نائما ولكني سارح ...

ويفهمني المعلم آلا مكان في مقهاه للكسالى ، وأنني أعرف جيدا طريق بيتي اذا كان الشغل لا يعجبني ، فاقسم له بشرف أجداده انني لم أكن نائما ، فيلين ويهدأ ، ويصفو خاطره عندما يراني أثب من زبون الى زبون في جولة تفقدية سريعة .

... والسلحفاة المعلقة في الجدار ما تزال تدب على تخوم الحادية عشرة .

وزبون الزاوية الغربية في المقهى يلك عنان نارجيلته وينهض متثائبا ، ويصفق اشعارا باستعداده لدفع الحساب .

... وأعدو اليه :

ـ مع السلامة يا افندي .

وعيني على الباقين . آف ما أثقلهم ! أليست لهم بيوت يرحلون اليها ؟ أليست لهم مشاغل يتسلون بها بدلا من ان يتسلوا هنا بمضغ الزمن والضجر ولهاث الاخرين ؟

ويطوي زبون اخر طاولة اللعب ، ويطرطق احجارها نشوان بخمرة النصر . فلقد دان له الزهر هذه الليلة ، ودحر خصمه في ثلاث جولات متتالية ، وصار من حقه ان ينفش صدره كالديك ، وان يتيه ببطولته الخارقة ، وان يطلب على شرف المناسبة السعيدة كوبين من عصير البرتقال .

وأنا ورفيقاي على أبواب طبريا . نستعد للحظة . وطبريا تغرق في سباتها الاسيان ، وتحلم بالفارس الاسمر الذي سوف يقبل ذات يوم على حصانه الابيض ، ليكشح عن عينيها غبش المذلة ، وشارعها الرئيسي يمتد امامنا وينشلح حزينا كثوب حداد اسود ، ومواء هرة جائعة يمزق الصمت اتبليد بفتور ويأس ومسكنة ، وهبات من ريح خريفية كسول تكنس الغبار واوراق الاشجار وتجرجرها باعياء على مدى الشارع ، ونجيب بومة ينثال فوق رؤوسنا من أعالي سروة تسربلها الكآبة ... ومخفر للعدو في الطرف القصي يمد نحو السكون طرفه الكليل الارمد ، ويغامز بين الفينة والفينة راية زرقاء كريهة تخفق فوق بابه ، كأنه انما يطمئنها اتى انها في أمان من اشباح الليل ، ولا يمر ببابه ابدا ان ارادة الثأر قد اختارته الليلة ، بما فيه ومن فيه ، هدفا لاجرأ غارة من غاراتنا الليلية ...

وأزحف نحو المخفر يتبعني رفيقاي ، وأحس كأن الارض تحتضنني بحرارة وتهرش لتمنحني سورا من الجبال يحمي زحفي ، وأشعر كأن سيلا من عيون الاحباب يخترق النوافذ المغلقة ، ويهرع ليسيجني ، ويملأ بالعزم قلبي وزندي .

ونزرع حول المخفر حملنا الثقيل من المتفجرات ، ثم ننكفىء . وحين نبتعد أهمس لرفعت :

ـ الان أشعل الفتيل يا رفعت !

***

. وينتفض صابر كالمذعور .

هي ذي السلحفاة قد بلغت محجتها آخيرا .

ورفيقاي ينتظرانني في مكان ما ، وقد آن ان ننطلق ، ففي طبريا تنتظرنا مهمة ، ووراء نوافذها المغلقة تبتسم لنا عيون الاحباب .

تصبح على خير يا معلم سعيد ..

ويزعق المعلم :

ـ صابر ... الى اين ، آلى اين ؟ أرأيتم ؟ لقد تركني الكلب وحدي وهرب !

**أحمد سويد**


ذكريات الحكيم (١)

# سورية والعهد العثماني

بقلم

يوسف الحكيم

منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت

توزيع المكتبة الشرقية ساحة النجمة - بيروت